

العلم والعلماء في كلمات الإمام الباقر (ع)

فالإمام الباقر (ع) كانت لديه معرفة واسعة في كل هذه الميادين العلمية، ولا يعني ذلك بأنه لم يكن لديه إلا مجرد علم موسوعي - باصطلاحنا المعاصر - كأن يكون لديه معرفة في الكثير من المجالات والعلوم، ولكنها معرفة تخلوا من العمق والدقة العالية التي يتميز بها أهل الاختصاص عادةً. كلا، بل كان على العكس، فمن يراجع حياته العلمية يدرك جلياً بأنه كان متميزاً بغزارة علمه وبسعة معرفته وبتبحره في كل الأبواب العلمية التي طرقها وتحدث عنها، كعلم الفقه، وعلم الكلام، وعلم الحديث، وعلم التفسير، وغيرها من العلوم الأخرى، إذ تميز طرحه بالعمق والدقة معاً، ولذلك كان (ع) مرجعاً علمياً كبيراً لا يقارن به أحد من العلماء في زمانه، وتخرج على يديه الكثير من العلماء البارزين كـ جابر بن يزيد الجعفي، ومحمد بن مسلم الثقفي، وأبو بصير المرادي، وزرارة بن أعين، ومحمد بن علي النعمان الملقب بؤمن الطاق وغيرهم.

وبالإضافة إلى تميزه العلمي فإن الإمام الباقر (ع) لم يكن مجرد منظر يمارس تنظيراته من بعيد - من فوق البرج العاجي - دون أن يكون له أي احتكاك وتفاعل جدي بالمجتمع الذي يعيشه، كما نشاهد ذلك من بعض العلماء والمفكرين، بل نراه تحمل مسؤوليته وتصدى للانحرافات الموجودة في زمانه، فدخل في مناظرات وحوارات مع بعض الأطراف التي كان لديها بعض الانحرافات والإختلالات العقائدية والفكرية والأخلاقية كالزنادقة والغلاة والمفوضة والخوارج وغيرهم، كما كان (ع) يجيب عن التساؤلات والإشكالات التي كانت ترد إليه من العلماء ومن عامة الناس.

ولهذا نستطيع القول أن الإمام الباقر (ع) كان في حياته كلها يفود ثورة علمية حقيقة، فهو من جهة وقف ضد كل ما يسهم في انحراف الأمة وانحطاطها، سواءً كان ذلك على شكل عقائد وأفكار ضالة أو سلوكيات منحرفة، والتي كانت تلقى الدعم والترويج من جهات مشبوهة أظنها ليست ببعيدة عن أصحاب السلطة والقرار السياسي آنذاك، ومن جهة أخرى تصدى (ع) لنشر المبادئ والقيم الإسلامية الصحيحة في المجتمع.

مهما يكن الأمر، فإنني في هذه المقالة سأقف على بعض كلمات ورؤى وأفكار الإمام الباقر (ع) في العلم والعلماء، لعلها تفيدنا إذا ما أردنا أن نتعلم أو نُعلم، ونحن ندرك أن هذه الأقوال والنصائح التي سنذكرها لم تأتي من إنسان عادي، بل جاءت من إنسان (عالم) بحجم الإمام محمد الباقر

الإمام الباقر (ع) والحث على طلب العلم:

روي عن الإمام محمد الباقر (ع) أنه قال: ((تعلموا العلم فإن تعلمه جنة، وطلبة عبادة، ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قربة، والعلم منار الجنة، وأنس الوحشية، وصاحب في الغربية، ورفيق في الخلوة، ودليل على السراء، وعون على الضراء، وزين عند الأخلاء، وسلاح على الأعداء، يرفع الله به قوماً ليجعلهم في الخير أئمة، يقتدى بفعالهم، وتقتص آثارهم، ويصلى عليهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه)).

نلاحظ أن هذه الكلمات الرائعة تجيب على سؤال: لماذا نتعلم؟! كما يلاحظ عليها كذلك أنها لم تركز على العلم باعتباره مفيداً في الدار الآخرة فقط، بل اشتملت على عبارات تؤكد أهمية العلم وفائدته الدنيوية أيضاً، فهو عبادة يؤجر عليها الإنسان، بالإضافة إلى كونه رفيق الخلوة ودليل على السراء وعون على الضراء وزين عند الأخلاء، وسلاح على الأعداء بحسب تعبير الإمام الباقر (ع).

الإمام الباقر (ع) وفضل العلماء:

وروي عنه (ع) قوله: (عالم ينتفع بعلمه أفضل من ألف عابد). وفي رواية أخرى عنه (ع): (واحد لموت عالم أحب إلى إبليس من موت سبعين عابداً).

وهنا قد يُطرح هذا السؤال: ما سر هذا التفضيل الذي للعالم على العابد؟! ويجاب عليه (عادة) بعدة إجابات منها أن العالم يستفيد من علمه الناس، أما العابد فهو المستفيد من عمله وعبادته دون غيره، أيضاً يُقال بأن السبب قد يكون بأن العالم يركز في أعماله على أساس معرفي بعكس العابد الذي ليس بالضرورة أن يكون كذلك، ولهذا فالعابد قد يلتبس عليه الأمر وربما لا تزيده كثرة السير إلا بعداً، بعكس العالم الذي لا تهجم عليه اللوالبس كما في بعض الآثار.

وهناك رواية عن الإمام الباقر (ع) قد يمكننا أن نستفيد منها لمعرفة سر تفضيل العالم على العابد، حيث يقول (ع): (لا يقبل عمل إلا بمعرفة ولا معرفة إلا بعمل، ومن عرف دلتته معرفته على العمل، ومن لا يعرف فلا عمل له)، فقد جعل الإمام الباقر (ع) العلم شرط لقبول العمل، ومن هنا فمن الطبيعي أن يفضل العالم على العابد غير العالم.

الإخلاص في طلب العلم:

عن الإمام الباقر (ع) أنه قال: (من طلب العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، فليتبوء مقعده من النار، إن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها)).

يتحدث الإمام الباقر (ع) في هذه الرواية عن مسألة مهمة جداً تواجه طلاب العلم، وهي مسألة حب الرئاسة، فالبعض منهم ربما يطلب العلم لطلب الرئاسة والزعامة، فنراه يباهي بعلمه العلماء، ويماري به السفهاء... ليصل إلى الرئاسة، فهو ليس مخلصاً ☐ سبحانه وتعالى بطلبه للعلم، بل لديه أغراض دنيوية ومنافع شخصية يريد أن ينالها من خلال طلبه للعلم.

حسن الاستماع:

وعنه (ع): (إذا جلست إلى عالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن القول، ولا تقطع على أحد حديثه).

وفي هذه الرواية ركز الإمام الباقر (ع) على ثلاثة نقاط مهمة ينبغي فعلها عند التعلم أو الجلوس عند العالم (الأستاذ) وهي: أولاً: أن تكون أحرص أن تسمع منك على أن تقول. ثانياً: تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن القول. ثالثاً: لا تقطع على أحد حديثه. وهذه التوجيهات كثيراً ما تذكر في زمننا الحاضر وتعقد عليها الكثير من المحاضرات والدورات التدريبية، وهي تأتي تحت عناوين من هذا القبيل: فن الإستماع، كيفية الإستماع، فوائد الاستماع وغيرها من العناوين المشابهة.

مذاكرة العلم:

وعن الإمام الباقر (ع): (تذاكر العلم دراسة، والدراسة صلاة حسنة). وباعتقادي أن المقصود بالتذاكر هنا النقاش والحوار بين الناس المتعلمين في القضايا العلمية، وهناك رواية يمكن أن تؤكد هذا المعنى، فعن أبي الجارود قال: ((سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: رحم الله عبداً أحيا العلم قال: قلت: وما إحياءه؟ قال: أن يذاكر به أهل الدين وأهل الورع)). كذلك هناك رواية عن الإمام الصادق (ع)

عن (ص) الرسول أنه قال: ((إن ا عزوجل يقول: تذاكر العلم بين عبادي مما تحيى عليه القلوب الميتة إذا هم انتهوا فيه إلى أمرى)).

مفاتيح العلم:

عنه (ع) أنه قال: ((العلم خزائن والمفاتيح السؤال، فاسألوا يرحكم ا فإنه يؤجر في العلم أربعة: السائل والمتكلم والمستمع والمحب لهم)).

وهنا نلاحظ أن الإمام الباقر (ع) يركز على أهمية السؤال باعتباره مفتاح لخزائن العلم، ويا ليتنا نعي ذلك وندركه جيداً، فالسؤال مهم جداً للتعلم، وهو مفتاح العلم الحقيقي، يعكس أسلوب التلقين التقليدي الذي لا يزال يحصى بشعبية كبيرة، وبالخصوص في أوساط بعض رجال الدين، لأن السؤال عند الكثير من رجال الدين هو مفتاح التشكيك والانحراف والضلال وفقدان الإيمان، وهو جريمة لا تغتفر، وينبغي محاربتة والوقوف بوجهه بشدة بحجة محاربة الانحراف والضلال. نقول هذا الكلام ونحن نأسف كل الأسف على هذا الوضع !

العمل بالعلم:

عنه (ع): ((إذا سمعتم العلم فاستعملوه ولتتسع قلوبكم، فإن العلم إذا كثر في قلب رجل لا يحتمله قدر الشيطان عليه، فإذا خاصمكم الشيطان فأقبلوا عليه بما تعرفون، فإن كيد الشيطان كان ضعيفاً، فقال له ابن أبي ليلى: وما الذي نعرفه؟ قال (ع): خاصموه بما ظهر لكم من قدرة ا عزوجل)).

ينبغي أن يفهم العلم على أساس أنه وسيلة للعمل، أو على أساس أنه الخطوة السابقة للعمل، فنحن نتعلم حتى نعمل بما نعلم، وليس من أجل حشو الذاكرة والمباهاة بهذا العلم أمام الناس، فالعلم ينبغي أن يكون مقدمة للعمل، لأنه لا خير في علم بلا عمل، لأنه بذلك ربما يكون مضراً بصاحبه بدلاً من أن يكون نافعاً له.

الإمام الباقر (ع) والحث على التعليم ونشر العلم:

عن الإمام الباقر (ع): (من علم باب هدى فله أجر من عمل به، ولا ينقص الئك من اُجورهم

شيئاً...، و يقول(ع): (زكاة العلم أن تعلمه عباد الله). وعنه أيضاً أنه قال (ع): (إن الذي تعلم العلم منكم له أجر مثل الذي يعلمه، وله الفضل عليه، تعلموا العلم من حملة العلم، وعلموه إخوانكم كما علمكم العلماء).

وهذه الروايات توجهها لأولئك العلماء المنطويين على أنفسهم، والذي لا يريدون الاحتكاك بالمجتمع سواءً كان ذلك بحجة عدم التأثير السلبي عليهم أو أي حجة كانت.

الإمام الباقر (ع) وصفات العالم:

من هو العالم؟ وما هي صفاته؟ حول الإجابة على هذا السؤال نجد عدة روايات عن الإمام

الباقر (ع) يوضح فيها الإمام (ع) بعض صفات العلماء، وسوف نذكر بعضها في التالي:

الصفة الأولى: لا يحسد من فوقه ولا يحتقر من دونه:

عن الإمام الباقر (ع) أنه قال: (لا يكون العبد عالماً فيما إذا صفت نفسه من الحسد الذي هو أعظم الآفات النفسية، فهو الذي يلقي الناس في البلاء ويجر لهم الخطوب، كما أن العالم لا يكون عالماً فيما إذا احتقر من دونه فإنه يتم عن انتفاعه بالعلم الذي يدعو إلى تكريم الناس، ومقابلتهم بالأخلاق الرفيعة فإن الرسول (ص) إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق، وإذا تجرد العالم من هذه الظاهرة فقد شذ عن سنن الرسول وأخلاقه ولا يكون العبد عالماً حتى لا يكون حاسداً لمن فوقه، ولا محتقراً لمن دونه).

الصفة الثانية: يزهد في الدنيا:

عنه (ع): (إن الفقيه حق الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة المتمسك بسنة النبي صلى الله عليه وآله).

§ الصفة الثالثة: البعد عن الجاه والسلطان:

عنه (ع): (إذا رأيت القارئ-العالم- يحب الأغنياء فهو صاحب دنيا وإذا رأيتموه يلزم السلطان من غير ضرورة فهو لص).

الإمام الباقر (ع) والقول من غير علم:

وفي رواية سأل زرارة الإمام الباقر (ع) ما حق العلم على العباد؟ قال (ع): " (أن يقولوا ما يعلمون، ويقفون عند ما لا يعلمون). وفي رواية أخرى عنه (ع) يقول فيها: ((ما علمتم فقولوا: وما لم تعلموا فقولوا: لا أعلم إن الرجل ينتزع الآية من القرآن يخر فيها أبعد ما بين السماء والأرض)). وفي رواية ثالثة عنه (ع) يقول محذراً من الفتوى من غير علم: ((من أفتى الناس بغير علم، ولا هدى لعنته ملائكة الرحمن ولعنته ملائكة العذاب، ولحقه وزر من عمل بفتواه)).

وفي الختام: أتمنى أن أكون قد وفقت لتناول بعضاً من كلمات الإمام محمد الباقر (ع) في العلم والعلماء، كما أتمنى أن أكون قد وفقت أيضاً لفهمها الفهم الصحيح، وذلك لكي تفيدنا وتلهمنا وتسدد خطانا إذا ما أردنا أن نسير في خطى العلم والعلماء.